واقع الزوايا في إقليم توات
بين مقتضيات الأصالة ومتطلبات الرسالة[1]

مقدمة: تعتبر الزوايا في إقليم توات إحدى القلاع الإسلامية الحصينة التي عملت على الحفاظ على العقيدة والمبادئ الإسلامية الصحيحة. أمام حملات التغريب والفرنسة والذوبان التي شنها المستعمر الفرنسي قديماً أيام الاحتلال، كما تعتبر السياج المنيع الذي حصن الهوية الوطنية والشخصية والإسلامية والقيم العرفية السامية من الأفكار الدخيلة التي روج لها أصحابها هنا وهناك بدعوى التجديد ومواكبة العصر.

فقد كانت الزوايا ولا تزال قد عملت على تخريج العلماء والفقهاء والدعاة والمجاهدين في سبيل الله من أجل تحرير الأرض. والذود عن العقيدة الإسلامية وصيانة القيم الإسلامية والأخلاق الفاضلة ونشر الخير والحب والسلام ومقاومة الظلم والعدوان.

قال الأستاذ: محمد المأمون مصطفى القاسمي الحسني: "إن رسالة الزوايا، كما يتضح لكل دارس نزيه رسالة شاملة شمولية هذا الدين، إنها رسالة حضارية ارتبط بها تاريخ الجزائر العلمي والثقافي ارتباطاً وثيقاً، فلم يقتصر دورها على التربية والتعليم، بل كانت وظائفها أشمل وأعمالها أعم وأوسع فهي معقل تربية وجهاد، ومعهد علم وعمل، وموطن تلاوة وذكر ومجلس إصلاح وقضاء، ومكان رأي ومشورة. وملتقى تعاون وتضامن وتكافل..."[1].

إذا كانت هذه هي رسالة الزوايا ومهمتها ودورها في وقت مضى، ولا يزال شيء منه سائراً في الوقت الحاضر فما هوموقع الزوايا اليوم من هذه الرسالة الحضارية العظيمة؟ هذا ما أردنا الجواب عنه خلال من خلال هذا الموضوع الصعوبات التي تواجهها الزوايا: نظراً لما قامت به الزوايا من دور حضاري عظيم في التصدي لحملات التجهيل والتغريب والفرنسة ومسح الشخصية الإسلامية ومحو الهوية الوطنية لقيت مضايقات جمة وصعوبات شتى زرعت في طريقة سيرها. فكان بذلك شلل كلي أوجزئي لحركة ونشاط الزوايا، ولذا فإنه قد لوحظ تراجع كبير في دورها خاصة في الحقبة الزمنية الأخيرة وهذه جملة العوائق والصعوبات التي واجهتها الزوايا.

---

*- أ. عبد الله رزوقي- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الجامعة الإفريقية بأدرار.

أ/ عوامل فناء واندثار بعض الزوايا: لقد شهدت بعض الزوايا التي كانت مفعمة بالنشاط توقفاً نهائياً عن عملها ومواصلة سيرها واندثاراً كلياً لقلاعها ولم يبق منها سوى الأطلال ومن جملة العوامل التي جعلتها تؤول إلى هذه الحال ما يلي:

1- الانتفاضات الجهادية المتعاقبة ضد المستعمر الفرنسي، وارتباط الزوايا بها حيث كان من طلاب الزوايا تتشكل الفيالق والعصابات، وفيها يعقد مجلس الحرب ضد العدو. وفيها يتم تجهيز المجاهدين ويتم التكفل بعائلاتهم وذويهم. فبعدما دفعت الزوايا بكل تلاميذها وأبنائها إلى خندق المعركة خوت على عروشها ولم يبق من يعمر بنائها.

2- تضيق الخناق من طرف المصالح الاستعمارية: لقد كان المستعمر يدرك تمام الإدراك ما تلعبه الزوايا من تحريض لمواجهته ولما تقوم به من صد لحملاته التغريبية ولما يروجه من أفكار لا علاقة لها بالدين الإسلامي. ولذا فإنه عمل جاهداً على التضييق على شيوخ الزوايا. وفرض الرقابة على نشاطاتهم بل تدخل في برنامج التعليم والتدريس التي كانت مبرمجة للطلاب، فمنع الحديث عن الجهاد ومقاومة الاستعمار ولم يبق سوى حفظ المتون وتدريس أحكام الوضوء والغسل والحيض والنفاس.

3- مصادرة ممتلكات وتأميم أوقافها: إن من أنواع العقوبات التي كانت تسلط على الزوايا الفاعلة. التي تعمل على أداء دورها على أكمل وجه أن تصادر أملاكها وتؤمم أوقافها، فتشل حركتها ويتعطل دورها وتغلق دورها وينتشر أهلها ومعمريها.

4- حدوث نزاعات بين فروع المؤسس: لقد أدى فشل فروع مؤسس الزاوية من إخوة وأبناء وأحفاد في التوصل إلى الاختيار الأنسب والأسلم الذي من خلاله تستمر الزاوية في أداء دورها إلى كثرة النزاعات بينهم. فتعطلت كثير من الزوايا وأغلقت أبوابها.

5- فشل تجربة التسيير الجماعي لبعض الزوايا: كثيرا ما يتولى بعض الزوايا لجان تسيير غير كفأة فتصاب الزوايا بالإهمال وتتبدد الأموال وتصرف أموالها في غير وجهها وتصاب بالعجز أخيراً مما يجعلها غير قادرة على الاستمرار فتغلق أبوابها.

6- الوضعية الأمنية التي عاشتها البلاد في عشريتها الأخيرة: لقد حالت تلك الأوضاع التي زعزعت أمن الطرق والمباشر دون تردد الطلاب على زواياهم فصارت خاوية بعدما كانت عامرة.

تفعيل دور الزوايا في الوقت الراهن المتأمل في واقع الزوايا اليوم والحال الذي آلت إليه من تقلص لدورها وعدم نجاعة وسائلها التقليدية وعدم مواكبة عقول شيوخها

الفكر المعاصر يستطيع أن يجزم أنه يستحيل أن تظل الزوايا تؤدي دوراً فاعلاً في حياة المجتمع اليوم ما لم تكن هناك بوادر تغيير في صرح الزوايا بما يجعلها تمارس مهامها وتؤدي دورها المنوطة به.

والقصد من التغيير هنا ليس ذلك التغيير الجذري الذي يعمل على تغيير الأدوار والغايات والأهداف وجوهر الزوايا، وإنما المراد به تغيير وتجديد الوسائل والأدوات من أجل مواكبة تغيرات العصر ومن أجل الحفاظ على استمرارية الزوايا والسماح لها بأن تلعب دورها كاملاً غير منقوص.

والواجب على القائمين على الزوايا أن يدرسوا بعناية جملة الأهداف المتوخاة من الزوايا والتي يسعون إلى تحقيقها. وعليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار كل الجوانب ذات الصلة بدور الزوايا وبوسائلها. من أجل إعادة تأطير الزوايا وإعادة مكانتها والسعي من أجل تفعيل دورها اليوم ومستقبلاً، وهذه الوسائل والأهداف نوجزها من خلال النقطتين التاليتين:

تفعيل وسائل الزوايا: يتمثل تفعيل وسائل الزوايا في مراعاة الجوانب: القانونية والهندسية والإدارية والمالية[2].

أ- الجانب القانوني: إن الغالب على الزوايا أنها إما أن تكون ملكاً خاصاً لشخص معين وإما أن تكون وقفاً عاماً مملوكا لجهة ما. ومفهوم الوقف في الشريعة الإسلامية حماية الشيء الموقوف ومنعه من أن يصير ملفاً لشخص ثالث.

والزاوية غالباً ما يكون من عوامل زوالها كونها ملكاً خاصاً لشخص ما كأن يكون مؤسس الزاوية. فهي من بعده ستؤول إلى ورثته الذين قد لا يهمهم شأن الزاوية فيعملون على غلقها وتحويلها.

والأنفع للزوايا أن تكون الطبيعة القانونية لها وقفاً عاماً مع تحديد الأهداف والوسائل ومهام ناظر الوقف وصلاحياته وشروط تعيينه وعزله... وبهذا تضمن الزاوية مشروعية استمرارية وبعدها عن أطماع الأقرباء ومن لهم شبهة ملك فيها.

وأيضاً على الزاوية أن تستغل التشريعات الحكومية فتعمل على إنشاء جمعيات دينية وثقافية واجتماعية وتمارس من خلالها دورها في المجتمع. وليس غريباً أن تنوع هذه الجمعيات بين المحلية والوطنية بل العالمية إذا سمحت الظروف بذلك.

ب- الجانب الهندسي: إن اختيار موقع الزاوية المناسب لأحد العوامل الهامة التي تساعد الزاوية على أداء مهامها. فاختيار الموقع وشكله والمساحة المخصصة ومدى مناسبتها لإقامة مباني وهياكل الزاوية ومدى توفر الخدمات والمرافق. والظرف المناخي لمحيط الزاوية، فليس زاوية في التل كزاوية في الصحراء.

وأهم هذه العوامل أن يكون أفراد البيئة التي يراد إنشاء الزاوية بها متقبلين ذهنياً لوجود الزاوية ولتقديم تسهيلات ومساعدات لها. فقد وجدنا من يمنع إقامة مركز إسلامي على تراب بلده لأعذار وهمية يقدمها. وإذا كان المحيط رافضاً لإنشاء زاوية ثم أنشئت فاحكم عليها بالزوال عاجلاً أوآجلاً.

ومن بين الأمور الواجب مراعاتها في هندسة الزاوية إيجاد القاعات المتخصصة فبعضها للمكتبة والآخر لمدارس التحفيظ والآخر للتكوين والآخر للأكل والإيواء ومنها ما هوللإدارة العامة للزاوية. وبهذا تكون الزاوية مؤسسة حضارية شأنها شأن أي مؤسسة حكومية أخرى بل أهم.

وأخيراً يجب مراعاة الشكل الهندسي للزاوية بأن يكون ذا طابع عربي إسلامي أصيل يستجيب لمتطلبات العصر وحاجياته المعاصرة.

ج- الجانب الإداري: تعتبر الإدارة عصب كل مشروع وشريان حياته. فعن طريقها تتخذ القرارات ويتم الإشراف على تنفيذها، والإدارة الناجحة بالنسبة للزوايا هي تلك الإدارة التي تستطيع أن تحول المواد الموجودة والوسائل المتاحة إلى أدوات يتم من خلالها الوصول إلى الأهداف والغايات المرسومة المخطط لها. وهي التي من شأنها أن تجعل الزاوية تحتل مكاناً مرموقا وسط المؤسسات الاجتماعية الأخرى فيكثر طلابها وروادها وزوارها تزدهر حركتها ويتوسع نفوذها...ولكي تكون الإدارة في هذا المستوى يجب مراعاة ما يلي:

1- التخطيط الجيد: وهوتحديد النظرة إلى الأمام ومحاولة التعرف على الظروف المستقبلية من أجل تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهداف الزاوية عن طرق وسائلها المتاحة، والاقتصاد فيها.

2- التنظيم المحكم: وهوتحديد مظاهر النشاط المطلوبة لتنفيذ الخطة ثم تقسيمها وتجميعها، مع تحديد العلاقات بينها بالشكل الذي يجعلها أكثر فعالية وتقدم أحسن أداء في سبيل تحقيق أهداف الزاوية.

3- التوجيه الحسن: وهوتقديم أمثل الطرق للعاملين من أجل أداء الأعمال المطلوبة منهم وتوفير وتجميع جميع الإمكانات والظروف التي تمكن من القيام بالمهام الموكولة لهم على أحسن وجه وأكمل حال.

4- الرقابة الصارمة: وهي معرفة مدى التطابق بين الخطة الموضوعة للمشروع والأعمال المنجزة والعمل على تحاشي الأخطاء إن كانت ثمة أخطاء.

5- التنسيق الفعال: وهو توزيع الأدوار والمهام على العاملين بحيث لا يتجه الجميع نحوأعمال معينة وتترك بقية الأعمال الأخرى من دون عاملين. حيث يتوزع كل العاملين على جميع الميادين المطلوبة، وفائدة هذا التنسيق تكمن في تحقيق الأهداف بأعلى درجة من الكفاءة وبأقل تكلفة وبأقل جهد وفي وقت قياسي، فلا يضيع الوقت ولا تضيع الجهود سدى بل ثمة تعاون وتآزر بين العاملين في سبيل تحقيق الأهداف.

6- القيادة الراشدة: أعني بالقيادة صاحب التخطيط للمشروع وليس شيخ الزاوية. وذلك أن الأعمال المراد إنجازها تتطلب إلى تخطيط وتنظيم وتوجيه ورقابة وتنسيق وتطلبها لقيادة راشدة يعمل على إيجاد المشاريع العملية التي يجب أن تطبق عليها تلك الجوانب المذكورة.

د- الجانب المالي: يعنى بالجانب المالي كيفية إدارة الموارد المالية من حيث الحصول على الأموال المطلوبة وتدبير مصادرها ومواردها ومن حيث حسن استخدامها وعدم تبذيرها. خوصاً وأن المال بالنسبة للزاوية يعتبر عصب حياتها. وسوء التصرف فيه هوتعطيل مباشر لدورها. وتتمثل موراد الزوايا المالية فيما يلي[3]:

1- إعانات المحسنين: وهي التي تقدم من الأغنياء في شكل مادة نقدية أو بضائع محلية أومواد غذائية، وخاصيتها أن تكون دورية مستمرة، وغالباً ما يكون ذلك سنوياً.

2- أموال أوقاف الزوايا: وهي التي تتمثل في العقارات والأراضي الزراعية والأشجار والنخيل والحيوانات ومحلات التجارة والحمامات وغيرها. وهي تعتبر مالاً دائماً وربحاً وافراً يغني الزوايا من حيث الجانب المادي إذا أحسن تدبيره واستغلاله.

3- أموال الزيارات: وهي التي يقدمها الأتباع والمحبون للزوايا عند زياراتهم المتكررة الدورية للزوايا. وغالباً ما يكون هؤلاء من الأغنياء الأثرياء. وهي أموال متنوعة منهم من يقدم

مالاً نقداً ومنهم من يقدم مواد غذائية ومنهم من يقدم رؤوس أغـــنام ومنهم من يقدم ملابس جـــاهزة ومنهم من يقدم غير ذلك.

خاتمة: إن المتأمل في هذه الموارد يجدها لم تعد تؤمن الجانب المالي للزاوية في الوقت الحاضر وذلك لقلة الهبات والعطايا الممنوحـــة حالياً وتدهور الأوقاف بل السطو عليها وعلى أرباحها. ويبقى الحل الأمثـــل لتأمين هذا الجانب هوإعادة تنظيم الأوقاف والأحباس التي هي ملك للزوايا بطريقـــة عـــصرية حديثـــة، واستغلال منافعها وأرباحها على أكمل وجه، فكم من زوايا تملك عقارات في شوارع هامة لكنها مهدمـــة أوغير صالحة فالواجب إعادة بنائها كمتاجر ومحلات وتؤجر والفائدة تعود للزوايا وكم من الزوايا تملـــك أراضي زراعية شاسعة وخصبة لكنها مهملة، والواجب التفكير في استغلالها وزراعتها والانتفاع بأرباحهـــا ولا مانع من أن تنشئ الزاوية شركة فلاحية مصغرة تعمل على استثمار هذه الأراضي والحقول والأشجار المثمرة على أن يكون للزوايا نصيب.

وهذا النظام الإسلامي نظام الأوقاف استغلته الحضارة الغربية بأحسن استغلال فهذه الجامعـــات الأمريكية لا يعتمد على ما يصرف إليها من الميزانية المالية الوطنية وإنما اعتمادها الأكبر علـــى مؤســـساتها الاقتصادية وبناياتها التجارية ومشاريعها الاستثمارية من بحوث وغيرها

وباستغلال هذا المورد الذي لا ينفذ يمكن للزاوية أن تظل مستمرة في أداء دورها الحـــضاري ولا تتلقى أي صعوبة من الجانب المالي.

وإذا استغلت هذه الأركان الاستغلال الجيد تبقى قضية المحاسبة كصمام أمان يمنع الأموال الطائلة من أن تذهب هنا وهناك من غير ضابط ومن غير أن يعرف لها وجهة. فوظيفة المحاسبة هي تجميع البيانات من المصادر المختلفة وتسجيلها وتحليلها وتقديمها في شكل تقارير إلى الجهات المعنية. وينظر المحاســـب في مجموع الأموال التي ذهبت لخدمة أوجه النشاط المختلفة المبرمجة كأهداف للزاوية. ولا بد مـــن التحلـــي بالصرامة في صرف الأموال وإلا لســـادها الإفلاس من أول يوم ويحق للملاحظين – عندئذ– أن يقولوا: إن أصحاب الزوايا يأكلون أموال الناس بالباطل.

المصادر والمراجع:

01/ أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19 و20 م. د. يحي بوعزيز – مجلة الثـــقافة العدد 63.

02/ الزاوية النموذجية في الألفية الثالثة – الأستاذ. موهوب ناصر الدين سفير – الملتقى الوطني الأول للزوايا – أدرار في: 1-2-3 ماي 2000م

03/واقع الزوايا اليوم – محمد المأمون مصطفى القاسمي الحسني – محاضرة ألقيت في الملتقى الـــوطني الأول للزوايـــا بـــأدرار – محـــرم 1421/ماي 2000م